الحجّ عبر الحضارات والأُمم

ماجدة المؤمن

قد يعتقد بعض الناس أنّ الحجّ أمرٌ أو حالة تقتصر على الدين الإسلامي والمسلمين فقط، وبالكيفية التي فصّلتها كتب الفقه المستمدّة من الكتاب الكريم والسُنّة الشريفة.

ولكنّ المتتبّع للحضارات القديمة والديانات السماوية والوضعية يجد أنّ الحج ركن ديني أساسي، مارسته الحضارات المختلفة، وألِفَته الأديان السماوية والوضعية بشكل مشابه بعض الشيء للحج الإسلامي.

ولعلَّ الكشوفات الأثرية الحديثة والتطوّر في المعارف والثقافة، والاطّلاع على الشعوب البدائية من خلال الدراسات «الإنثروبولوجية» الميدانية، لعلَّ كلّ ذلك كشف المزيد من المعلومات عن هذه الفريضة العالمية الكبيرة.

إنّ كثيراً من الهياكل والمعابد والمراكز الدينية المنتشرة في العالم، في بلاد وادي الرافدين وبلاد وادي النيل، وهياكل العبادة في كثير من المدن والبلدان هي في الحقيقة كانت مراكز أساسية للحج، يأتونها الزائرون قاصدين إليها لأداء أعمال

وأفعال وممارسات وطقوس محدّدة يعرفها المنتسبون لتلك الديانات.. يأتون في وقت محدّد وعلى جماعات، أليس ذلك هو الحج؟

إنّ الحج وإن اختلف بين حضارة وحضارة ودين ودين، يبقى مرجعه ومحوره النموذجي هو الحج الذي فرضه الله تعالى على عباده.

والمحور النموذجي والمرجع الحقيقي لكل حج في تاريخ الإنسان هو حج الأنبياء والرسل وحج إبراهيم عليه السلام الذي دعا الناس بأمرٍ من الله تعالى لأوّل بيت مقدّس علىٰ وجه الأرض، إلى أوّل بيت من بيوت الله جُعل للهداية ولغفران الذنوب، وهو بيت الله العتيق في مكّة المكرّمة، قال تعالى: ﴿**إنّ أوّل بيت وضع للناس للذي ببكّة مباركاً وهدًى للعالمين**﴾[1].

أي: جعل هذا البيت لجميع الناس، ولجميع الأديان، منذ خلقه الله تعالى حتّىٰ يقوم الحساب، ولم يخصّصه لفئة معيّنة أو لدين معيّن؛ لأنّ الدعوة إلى الدين، مصدرها الواحد الأحد لا غير، فالخالق واحد، والدعوة إلى الهدىٰ في جميع الأديان السماوية التوحيدية واحدة أيضاً، ولا يمكن أن يفرق بين عباده، بأن يجعل لأحدهم بيتاً مباركاً ذا رحمة وخير وبركة، ولا يجعل للآخرين مثله، وقوله تعالى: ﴿**وضع للناس**﴾ و ﴿**هدًى للعالمين**﴾ يدل على ذلك المعنىٰ.

لكنّ الناس عبر المسيرة البشرية حرّفت الأديان والتعاليم السماوية، والكتب المنزلة، كصحف إبراهيم عليه السلام، وتوراة موسىٰ عليه السلام، وإنجيل عيسى عليه السلام، وزبور داود عليه السلام، إلى ما تشتهي الأنفس ويميل الهوىٰ عندهم ﴿**اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرّتهم الحياة الدنيا**﴾[2]، وابتعدوا تماماً عن الدين، إلّا من هدى الله تعالى منهم، قال تعالى:

﴿**ولقد بعثنا في كلّ أُمّةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقّت عليه الضلالة**﴾[3].

فلما ابتعد أكثر الناس عن الدين الحنيف ـ دين الله ـ عبدوا الأصنام،

وتـــعدّدت الآلهـــة، وصُـنفت إلى إلٰـه الشـمس وإلٰـه القـمر وإلٰـه الخـير وإلٰـه الشر...، وقـــدّسوا ظـواهـر الطـبيعة مـن أشـجار وغـابات وجـبال وأنهـار وكواكب ووديان وأفلاك. وبعضهم الآخر قدّس قبور الموتىٰ وحيوانات معيّنة... وجعلوا منها أماكن ومراكز يزورونها في أوقات معيّنة وأكثرها زيارات الأعياد؛ لتكـــون زيـارة جمـاعية مـوقتة بـزمن ومكـان، وإذا اجـتمعت هـذه الثـنائية كوّنت حجّاً!.

● **الحج في حضارة وادي النيل**

اشتهرت أرض مصر الفرعونية بالهياكل، والمقابر الضخمة كـالاهرامـات، وبتعدّد الآلهة إلّا في زمن اخناتون الموحِّد للآلهة.

فالهياكل انتشرت في أنحاء مصر القديمة وأشهرها «الكَرْنَكْ» و«الأُقـصُر» و«إدْفُو» و«دَنْدارة». وهذه الهياكل بعضها محفور في شاهق صخري كـمعبد «أبي سِنْبل» في بلاد النوبة، الذي هو أشهر الهياكل وقيل أقدمها، وله أهمية كـبيرة في نفوس المصريين القدماء، وحين تولّىٰ رمسيس الثاني عرش مصر نحته في الصخر الحيّ وأتمّ بناءه(٤).

واعـــتقد المـــصريون بآلهـة كـثيرة، ولكـنّهم آثـروا عـبادة اثـنين كـان لهم السـبق عـلىٰ جمـيع الآلهـة الأُخـرى، أحـدهما (أوزيـريس) الذي لم يـقهره الموت، والآخر هو الشمس التي تبهر البـصر بـضيائها في سماء مـصر الصـافية، هـــذا هـــو الإلٰـــه «رع» الذي كـــان أعـظم الآلهـة المـصرية كـإلٰه للأحـياء، والذي أقـــام المـــصريون لعـــبادته أفـخم مـعابدهم. ولم يكـن الهـرم إلّا رمـزاً مقدّساً له(٥).

وكانت الهياكل علىٰ شكلٍ كبير من الضخامة؛ لتليق بالآلهة ـ كما يعتقدون ـ كمعبد «الكرنك» الذي يبلغ طوله حوالى (١٠٠) متر تقريباً. والتصميم المعتمد هو

نفسه تقريباً في كلّ الهياكل. وأقسامه الأساسية هي: بُرجان ضخمان عند المدخل، وأمام كلّ من البرجين تنتصب مِسَلّة حجرية وسارية ترفرف عليها أعلام. وفي بعض المعابد يحيط بالمدخل صفّان من تماثيل «أبي الهول»[٦] وفي نهاية المدخل بوّابة تؤدي إلى باحة محاطة بالأعمدة، وفي نهاية الباحة «بهو الأعمدة» الذي لا يدخله إلّا الكهنة والمتنفّذون. ويلي «بهو الأعمدة» حجرة سرّية تحيط بها مقصورات تعجّ بالنفائس، وفي وسطها المركب المقدّس. بينما تمثال الإله يوضع في فناء المعبد[٧].

ثم صار الآلهة في آخر الأمر بشراً ـ أو بعبارة أصحّ أصبح البشر آلهة، ولم يكن آلهة مصر من الآدميين إلّا رجالاً متفوّقين أو نساء متفوّقات خُلقوا في صورة عظيمة باسلة[٨]. فقد ألّهوا (أزوريس) الذي أصبح قبره فيما بعد محجّةً لهم وللأجيال بعدهم. ويذكر لنا التاريخ أنّ المصريين القدماء كانوا يعتقدون أنّ آلهتهم تجتمع في معبد «أوزيرس» بمدينة «أبيدوس» في عيد هذا المعبود، فكانوا يحجّون إليه بهذه المناسبة، ولمدينة أبيدوس تاريخ ديني وسياسي مرموق، ففيها دُفن أقدم ملوك مصر، وإليها انتقلت عبادة «أوزوريس» وفي المكان المعروف اليوم «بأم العقاب» جعل المصريون قبره، وعُدت أبيدوس كعبة يطوفون بها حول قبر الشهيد «أزوريس» الذي صار لديهم (إمام الموتى) والشهداء، لا يدخلون الجنّة إلّا من بابه، ويبنون لهم فيها مزارات...»[٩].

ولهذا الشهيد أُسطورة تحكيها لنا الكتابات المسجلة على جدران المعبد باللغة «الهيروغليفية». ولأهمية هذه الاسطورة الخرافية في معتقداتهم بحيث يصبح قبر بطلها كعبة يُحج إليها كلّ عام، ويُقدّم لها كل غالٍ ونفيس، تقول الاسطورة: «إنّه في قديم الزمان كان يحكم هذه البلاد ملك اسمه "جب" وكان له ولدان من الذكور واثنتان من الإناث. وزوّج الملك ابنه أوزوريس من أُخته ايزيس، كما زوج ابنه

ست من أخته تفتيس.. ولأنّ أوزوريس كان طيب القلب عادلاً ملّكه أبوه الوديان الخضر والسهول والأنهار. أما ست الذي كان شرّيراً حاقداً فقد ملّكه أبوه أرض الصحارى القاحلة والرمال القفر. وكان أوزوريس موسيقياً بارعاً أحبّهُ الناس، فحقد عليه أخوه ست، وتآمر مع آخرين حتىٰ صنع صندوقاً من الذهب الخالص بحجم أوزوريس، وزعم في حفل أقامه أنّه يهديه لمن يتسع له.. فأقام مأدبة واستلقىٰ فيه كثيرٌ حتى استلقى الأخ، فأمر ست بإغلاق الغطاء وإلقائه في النيل. وراحت الأمواج تتقاذف الصندوق.. ووظّفت زوجته الوفية، ما لديها من علوم السحر، حتّىٰ عرفت محلّه الذي استقر فيه الصندوق. فركبت سفينة انطلقت بها.. وتحايلت علىٰ ملك ببلوس الذي احتفظ بالصندوق، وكشفت له عن شخصيتها، وأماطت اللثام عن سيّدها، فسمح لها باسترداد الصندوق. وإذ حلَّ عليها المساء، نامت فوق الصندوق الذي فيه زوجها، فجاءتها الرؤيا وهي نائمة بأنّها حملت من روح زوجها، وعندما عادت إلىٰ مصر اختفت ومعها الصندوق في جزيرة فيلة خوفاً عليه من (ست). وظلّت مختفيةً حتى ولدت «حورس». وعثر (ست) على الصندوق، وقطّع جثة أوزوريس إلى (١٦) قطعة بعثرها في جميع مقاطعات مصر، وفتشت الزوجة الوفية فعثرت عليها إلّا القدم اليمنىٰ.. وكانت هذه القدم تجلب الخير والخصب والطمى؛ لتنمو ربوع مصر بالخير والفيضان للنيل، ومنذ تلك اللحظة صار أوزوريس ملكاً للموتىٰ يتولىٰ حسابهم في الآخرة، وأصبح ابنه «حورس» من بعد هو الإلٰه.. ونُصب له تمثال برأس الصقر الذهبي..»[١٠].

كعبة الفراعنة

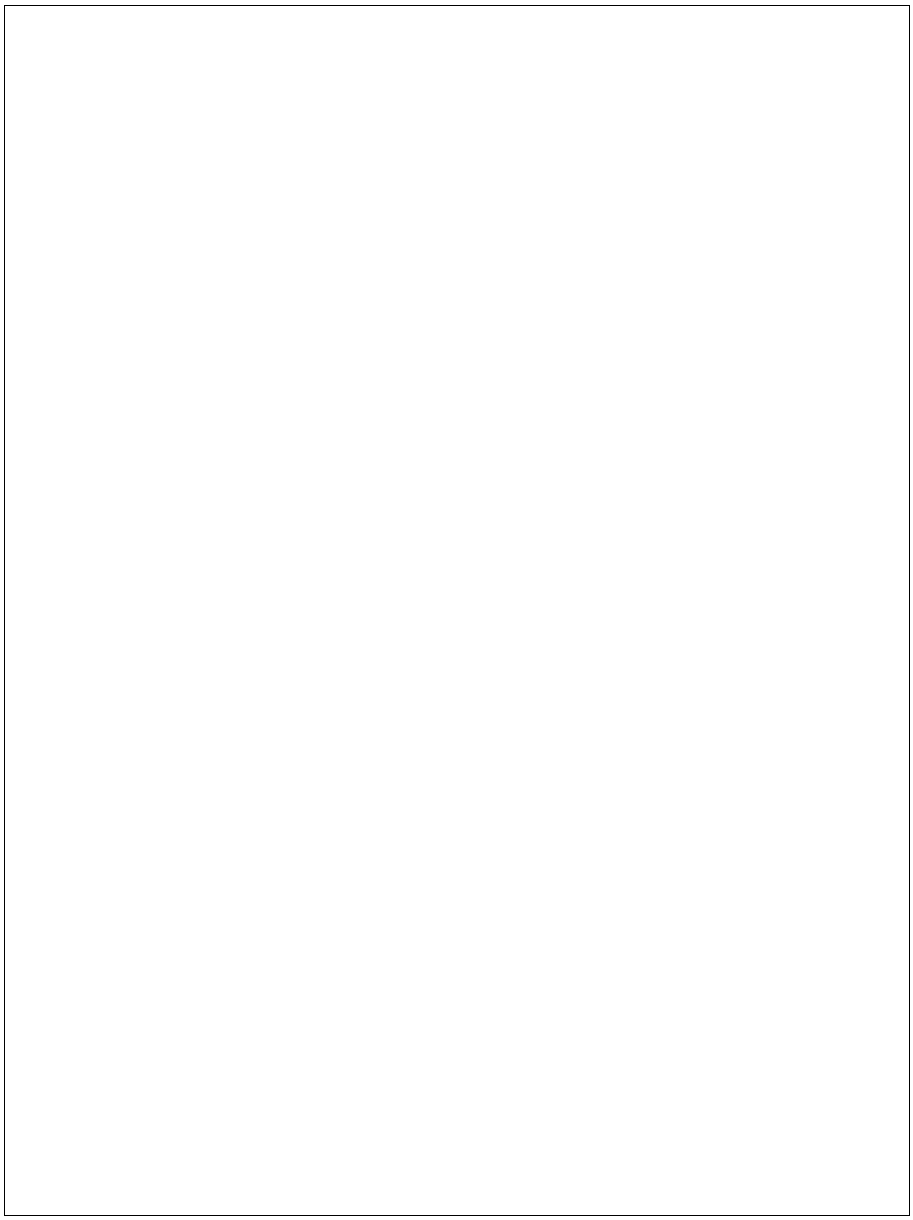

معبد «أبي سنبل» وفيه قبر «إمام الموتى والشهداء!» أوزوريس

● **الحجّ في حضارة وادي الرافدين**

أمّا في حضارة ما بين النهرين ـ السومرية والبابلية والأكدية والآشورية ـ التي استمرّت ثلاثة آلاف عام، كان (الإله آنو) على رأس (البانتيون)، وكانت الآلهة تخرج بملابس محمولة بشرف على أكتاف الكهنة، في أعياد رأس السنة، وبمراسم خاصّة وطقوس خاصّة، وكانت لها أهمّية ذات حدّين، وقد يقوم الإله بزيارة طقسية إلى معبودات أُخرىٰ بمناسبة الأعياد الكبيرة، لذا فإنّ (نابو) في بورسيا يزور بانتظام والده مردوخ في عيد رأس السنة الجديدة في بابل[١١].

وتعدّدت الآلهة في وادي الرافدين بتعدّد المدن والدويلات، وحصر السومريون آلهتهم في مجموعتين: الثالوث الأوّل ويتألّف من «آنو» إلٰه السماء «وأنليل» إلٰه الأرض، و«إيا» إلٰه المياه الجوفية، فجمعوا بذلك بين عناصر المادّة الثلاثة: السائل والهواء والجماد. والثالوث الثاني يتألّف من «شَمَشْ» إلٰه الشمس، و«سين» إلٰه القمر، و«أدَدْ» الذي يجمع كلّ عناصر الطبيعة. وأدَدْ هذا أدخله «الاكديون» معهم من بلاد «أمورّو». وأضافت كلّ دولة إلهاً خاصّاً بها مثل «مردوخ» و«آشور» و «عشتار» و«نَبُو»[١٢].

وأهم الأبنية الدينية عندهم هي المعابد والمقابر: وعُرفت المعابد باسم «الزقورة» أقدمها ما بناه السومريون، وأشهرها «برج بابل» حيث عُبد الإلٰه «نَبُو»[١٣].

وكان لكلّ مدينة مهمّة ـ في بلاد ما بين النهرين ـ معبد مهم، وفي كلّ معبد برج شامخ يسمّونَهُ «زقورة» شكله مربّع في المعابد المربعة، ومستدير في المعابد البيضوية، تراقب منه الكواكب والنجوم. نظراً لما لعلم الفلك من أهمّية وتأثير في الحياة اليومية والدينية، وكانوا يعلنون من خلاله بداية رأس السنة الجديدة، ليعلنوا بدايات الطقوس الدينية السنوية لزوّار الزقورة في المعبد. وقد كشفت التنقيبات الحديثة عن زقورات عديدة منها زقورة أُورك ونيبور وآشور وخورس

ونمرود وماري وغيرها، وكانت هذه أماكن مهمّة (للحج) في أعياد رأس السنة المعروفة عندهم آنذاك على ما يبدو..

«ويشير لنزن H.Lenzen، وهو حُجة في موضوع الزقورة، ويؤكد أن المعبد العالي ـ أعلى الزقورة ـ لم يكن مجرّد مكان لاستراحة المعبود، بل أن طقساً حقيقياً كان يتمّ إجراؤه هناك. ولذا فقد كانت الزقورة بهذا المعنى «مذبحاً عظيماً» وفي داخل المعبد، قريباً من قاعدة الزقورة، كانت غُرفة الإله الرئيس، وعدد من المصليات الصغيرة بالنسبة للمعبودات المرتبطة به، علىٰ حين يوجد خارج هذا الهيكل الرئيسي ساحة كبيرة حيث تجتمع العامّة في أوقات الأعياد»[١٤].

يبدو من كلّ ذلك ومن الطقوس والمراسيم والرحلات الجماعية إلى الزقورة[١٥] ومع ما يصطحبها من ذبح وقرابين وأعمال خاصة من النحور وبعض المراسم الطقسية السنوية. أنّها ـ الزقورات ـ أماكن حج لتلك الأقوام.. وبالطبع هو حج وضعي غير إلٰهي واضح من آلهتهم المتعدّدة وعبادتهم للآلهة البشر.

والجدير بالذكر أنّ حضارة وادي الرافدين الطويلة في الزمن وفي التاريخ، لابد من أن تكون هناك أماكن أُخرى محلية قصدها الزوّار؛ لغرض أداء طقوس معيّنة وشكليات منظمة يمكن أن تحسّها أنواعاً من حجّهم.. ولعل السبب في عدم العثور على تلك الحقائق هو طبيعة البناء عندهم، حيث كان ذا أساس طيني ممّا لم تبقِ الفيضانات له شيئاً عبر الزمن. وهذا خلاف طبيعة البناء المصري القديم الذي غالباً ما يكون بناء صخرياً يحافظ عليه مناخ مصر الجاف آلافاً من السنين.

وهناك مذهب ديني في حضارة وادي الرافدين يرجع تاريخه إلى عهدٍ قديم، وهو مذهب الصابئة، يدّعي أصحابه: «أنّ معلميهم الأوّلين هما النبيان الفيلسوفان عاذيمون (أي الروح الطيب) وهرمس، وقد قيل: إنّ عاذيمون هو شيث[١٦] الابن الثالث لآدم عليه السلام، وإنّ هرمس هو النبي إدريس عليه السلام[١٧]. وكان أورفيوس أيضاً من فلاسفتهم وأنبيائهم»[١٨].

وكانت هذه الفئة تسكن مدينة حرّان الواقعة في الجنوب الشرقي من تركيا الحالية «وهي بين طريق الموصل والشام»[١٩].

وحرّان : مدينة قديمة جدّاً تقع قرب منابع نهر البليخ بين الرها ورأس عين، وقد اشتهرت بأنّها موطن إبراهيم عليه السلام ولابان، ولكن شهرتها ترجع بصفة خاصة إلى أنّها (قصبة الصابئة) وموئل دينهم[٢٠]. واشتهرت في التاريخ أنّها مقر عبادة (سن) إله القمر الذي زيّن معبده أكثر من ملك من ملوك الآشوريين، ولم تتغيّر الأحوال في المدينة على أثر انهيار سلطان الكلدانيين وقيام دولة الفرس[٢١]. وكانت مركزاً هامّاً في طريق التجارة من نينوى إلى قرقميش، وكانت مركزاً لعبادة إله القمر الآشوري[٢٢].

وحرّان المدينة المقدّسة عند الصابئة، ومقصد حجّهم حيث معبدهم مقر «سن» إله القمر، «وفئة من الصابئة تحج إلى حاران ـ أو حرّان ـ التي هاجر إليها

إبراهيم عليه السلام، وينسب إليها الصابئة الحرّانيون»[٢٣].

والصابئة فرق متعدّدة، رغم قلّتهم، فمنهم من ينتمي إلى كاظم بن تارح، وقد ذكرهم المقريزي بين الفرق المختلفة، وكأنّهم يقابلون دين إبراهيم عليه السلام بدين أخ له ينتمي إلى تارح، أبي إبراهيم في رواية العهد القديم[٢٤].

ويقال: إنّ الحرّانيين ينتمون إلى حاران أو هادان أخي إبراهيم عليه السلام وقد يكون هو نفسه المقصود (كاظم) ولا دليل لنا على ذلك.

وقد ذكر أبو ريحان البيروني في الآثار الباقية: «أنّ أوّل المذكورين من الصابئة: يعني المتنبئين يوذاسف، وقد ظهر عند مضي سنة من ملك طمهورث بأرض الهند، وأتىٰ بالكتابة الفارسية، ودعا إلى ملّة الصابئين فاتبعه خلق كثير، وكانت الملوك البيشدادية وبعض الكيانية ممّن كان يستوطن بلخ، يعظّمون النيرين والكواكب وكليات العناصر، ويقدّسونها إلىٰ وقت ظهور زرادشت عند مضي ثلاثين سنة من ملك بشتاسف، وبقايا أولئك الصابئين (بحرّان) يُنسبون إلىٰ موضعهم، فيقال لهم: الحرانية وقد قيل: إنّها نسبة إلى هاران بن ترخ أخي إبراهيم عليه السلام وأنّه كان من بين رؤوسائهم أوغلهم في الدين وأشدّهم تمسّكاً به»[٢٥].

والصابئة الحرّانيون لهم أقوال وآراء في إبراهيم الخليل عليه السلام يندى لها الجبين، نذكر هنا ما ينسبونه إليه عليه السلام في خروجه عن دينهم: «إنّ إبراهيم عليه السلام إنّما خرج عن جملتهم؛ لأنّه خرج في قلفته برص، وإنّ من كان به ذلك فهو نجس لا يخالطونه، فقطع قلفته بذلك السبب يعني (اختتن)[٢٦]، ودخل إلى بيت من بيوت الأصنام، فسمع صوتاً من صنم يقول له: يا إبراهيم خرجت من عندنا بعيب واحد، وجئتنا بعيبين، اخرج ولا تعاود المجيء إلينا، فحمله الغيظ على أن جعلها جُذاذاً، وخرج من جملتهم، ثم إنّه ندم بعدما فعله، وأراد ذبح ابنه لكوكب المشتري صدق توبته ففداه بكبش»[٢٧].

وهناك فرقة أُخرى من فرق الصابئة تسمّى (المنديا)[٢٨] أو الصبوة، وهي

فرقة يهودية نصرانية تمارس شعيرة التعميد في العراق»[٢٩].

وهناك فرق أُخر، أفرد الشهرستاني لهم ولشرح أقوالهم فصلاً مسهباً غاية الإسهاب في كتابه الملل والنحل.

ومن الصابئة من يعظِّم بيت الله الحرام والكعبة الشريفة ويحج إليها كلّ عام، وجاء في الأحاديث الشريفة، أن أنواعاً من الحج تعدّدت في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكان أهمّها الحج الجاهلي والحج الحنفي والحج الصابئي.

وتدّعي هذه الفرقة من الصابئة أنّ الكعبة وأصنامها كانت لهم، وعبدتها كانوا من جملتهم وأنّ اللّات كان باسم زحل، والعزى باسم الزهرة»[٣٠].

«والمشهور عن الصابئة أنّهم يوقّرون الكعبة في مكّة، ويعتقدون أنّها من بناء هرمس أي إدريس عليه السلام وأنّها بيت زحل أعلى الكواكب السيّارة، ويُنقل عنهم عارفوهم أنّهم قرأوا صفة محمّد صلى الله عليه وآله في كتبهم ويسمّونه عندهم ملك العرب»[٣١].

وقد ذكرهم القرآن الكريم في ثلاثة مواضع فقط، في سورة البقرة، الآية ٦٢. وفي سورة المائدة، الآية ٦٩، وفي سورة الحج الآية ١٧.

والصابئة دين خليط يشبه الجميع في بعض شرائعه، ويختلف مع الجميع في بعض شرائعه الأُخرى[٣٢].

● **الحجّ في الحضارة الفارسية القديمة**

وفي الحضارة الفارسية القديمة طقوس ورسوم وعقائد وأفكار يطول تعدادها لو أردنا الدخول إليها، ولكن لنأخذ مقطعاً من تأريخها وليكن الديانة الزرداشتية؛ لأنّها أشهر ديانة وأعظم تعاليم تمسّك بها الفرس منذ «القرن العاشر أو السادس قبل الميلاد»[٣٣] حتىٰ يومنا هذا توجد بقايا من أتباعه في مدينة يزد الإيرانية وفي الهند.

والذين يدينون بالزرداشتية يعرفون أن تعاليمها تأتي من خمسة كتب مقدّسة ادّعىٰ بها نبيّهم «زرادشت»[٣٤] أنّها من وحي الإله الواحد أهورا ـ مزدا إله النور والسماء.

ومن بين هذه الكتب المقدّسة كتاب «الياسنا» الذي يهتم بالشعائر والطقوس، ويمكننا أن نلتقط من هذه الشعائر والطقوس ما يمكن أن يمثِّل شكلاً من أشكال الحج، حيث الزيارات السنوية المقدّسة إلى المعابد في الأعياد الدينية، وتقديم الأضاحي والنذورات ومراسم مقدّسة أخرىٰ..

ومن تعاليم هذا الكتاب «التقوىٰ» يقول وِل ديورانت: «ولمّا كانت التقوىٰ أعظم الفضائل على الإطلاق ـ عندهم ـ فإنّ أوّل ما يجب على الإنسان في هذه الحياة أن يعبد الله بالطهر والتضحية والصلاة. ولم تك فارس الزرادشتية تسمح بإقامة الهياكل أو الأصنام، بل كانوا ينشئون المذابح المقدّسة علىٰ قمم الجبال وفي القصور أو في قلب المدن، وكانوا يوقدون النار فوقها تكريماً لآهورا ـ مزدا، أو لغيره من صغار الآلهة. وكانوا يتخذون النار نفسها إلهاً يعبدونه ويسمّونها «أنار» ويعتقدون أنّها ابن إله النور.. وكانوا يقرّبون إلى الشمس، وإلى النار ـ التي لا تنطفئ طيلة العام ـ وإلى أهورا مزدا، القرابين من الأزهار والخير، والفاكهة، والعطور، والثيران والضأن والجمال والخيل والحمير وذكور الوعل، وكانوا في أقدم الأزمنة يقرّبون إليها الضحايا البشرية[٣٥] شأن غيرهم من الأُمم، ولم يكن للآلهة من هذه

القرابين إلّا رائحتها.. لأنّ الآلهة ـ على حدّ قول الكهنة ـ ليست في حاجة إلى أكثر من روح الضحية[٣٦].

«وكان الأهلون ـ عامّة الشعب المتديّن ـ يجتمعون في الأعياد وكلّهم يرتدون الملابس البيضاء. وكانت (الشريعة الأبستاقية)[٣٧] كالشريعتين الإبراهيمية والموسوية مليئة بمراسم التطهير والحذر من القذارة، وكان في كتاب الزرادشتية المقدّس فقرات طويلة ممّا خصّت كلّها بشرح القواعد الواجب اتباعها لطهارة الجسد والروح»[٣٨].

ونفهم ممّا سبق أنّ لهم زيارات سنوية لمعابدهم يؤدّون فيها طقوساً خاصّة، ويلبسون الملابس البيضاء، ويقدّمون الضحايا ممّا يدلّ على أنّ لهم حجّاً بالمعنى اللغوي الذي فهمناه.

● **الحجّ في الحضارة الرومانية**

والحضارة الرومانية كذلك عرفت الحج، ونظّمت طقوساً خاصّة به، ممّا يتعلّق بديانتهم، وبنت الهياكل الكبيرة[٣٩] المربعة منها والمستديرة، وقدّمت للهياكل هدايا وأضاحي ونذورات، وعددت الآلهة، وجعلت لكلِّ شيءٍ إلهاً، وتقرّبت للآلهة؛ لكسب عونها ورضاها، أو لاتقاء غضبها. وكان الكهنة يوصون الحجّاج أو زائري الهياكل والمعابد أن يلتزموا بالدقّة في ممارسة الطقوس والشعائر الخاصّة في الاحتفال في الأعياد السنوية وغير السنوية، وإذا وقع خطأ في طقس من هذه الطقوس أيّاً كان نوعه، وجبت إعادته من جديد، ولو تطلّب ذلك إعادته ثلاثين مرّة[٤٠].

وكان أهم ما في هذه الطقوس، التضحية «وفي أكبر المناسبات أهمية عيد السو أفي يلية (Su - ove - taur - illa) أي (عيد الخنزير والشاة والثور). وكانوا يعتقدون أنّه إذا تليت صيغ خاصة على التضحية استحالت إلى إلـه يراد منه أن يتقبلها، وعلى هذا الاعتبار كان الإلـه نفسه هو الذي يضحىٰ به»[٤١].

وهناك مراسم أُخرىٰ في عيد التطهير «وكان احتفال التطهير من أكثر هذه الطقوس متعة، وكان هذا التطهير يحدث للمحصولات الزراعية أو لقطعات الماشية أو للجيش أو المدينة. وكانت الطريقة المتّبعة في هذا الاحتفال أن يطوف موكب بالشيء المراد تطهيره، ويقدّم له الصلوات والذبائح والانشودة والرقية، ورجاء الإجابة فانّ لم يجب فإن غلطة ما قد حدثت في الطقوس المرعية»[٤٢].

وهناك مكان آخر حجّ إليه الرومان وهو إلٰه القمر (ديانا) «وكانت ـ ديانا ـ في زعمهم روح شجرة جيء بها من أريشة (Aricea) حينما خضع هذا الإقليم من أقاليم لا ينوم لحكم رومة، وكان بالقرب من أريشيا بحيرة نيمي Nemi وأيكتها، وكان في هذه الأيكة مزار ديانا ملجأ الحجاج، الذين يعتقدون أن هذه الالهة قد ضاجعت في هذا المكان فربيوس Virbius ملك الغابات الأوّل، ولكي يضمن دوام

إخصاب ديانا وإخصاب الأرض كان خلفاء فربيوس ـ وهم كهنة الصائدة وأزواجها ـ يستبدل بهم جميعاً واحداً بعد واحد أي عبد قوي يعوذ نفسه بغصن (يسمىٰ عندهم بالغصن الذهبي) يأخذه من شجرة البلوط المقدّسة إحدى أشجار الأيكة ويهاجم الملك ويذبحه. وقد بقيت هذه العادة إلى القرن الثاني بعد ميلاد المسيح»[٤٣].

أمّا رومة المسيحية فقد اتخذت أشكالاً أُخرىٰ وأنواعاً من الحج سنتحدّث عنها في (الحجّ في الديانة المسيحية) وفي وقت آخر إن شاء الله تعالى.

● **الحجّ في الحضارة الهندية**

أمّا الهند فلا يمكن استيعابها بأسرها؛ لكثرة السكان واختلاف اللغات والأديان، فهي ليست أمّة واحدة كمصر أو بابل أو رومة، بل هي قارة بأسرها.

لقد تعدّدت الأديان في الهند، وأخذت عقائدها الدينية ما يمثِّل كل مراحل العقيدة من الوثنية البربرية إلى أدقّ وحدة في الوجود وأكثرها روحانية منذ عام ٢٩٠٠ق.م إلى يومنا هذا..

لقد وضع الهنود لهم أعياداً سنوية كغيرهم من الأُمم، وبعض هذه الأعياد يصاحبها حج إلى معبد أو ضريح أو هيكل معيّن، وممارسة بعض الطقوس والشعائر المتعلّقة به، كما وجدنا ذلك عند بقية الأُمم، فغالباً ما يكون الحج مصحوباً بعيد سنوي ديني.

والهنود قلّدوا ما قبلهم من الأقوام، الذين نطقوا باللغة السنسكريتية، ووضعوا الأدعية والصلاة وغيرها بتلك اللغة «فكانوا يسيرون مواكب عظيمة أو أفواجاً من الحجّاج، قاصدين الأضرحة القديمة، ولم يكونوا ليفهموا ما يُقال من عبارات الصلاة في تلك المعابد؛ لأنّها كانت تقال «بالسنسكريتية»، لكنّهم كانوا يفهمون الأوثان، فيزينونها بالحُلى ويطلونها بالطلاء، ويرصعونها بكريم الأحجار، وكانوا أحياناً يُعاملونها كأنّها كائنات بشرية..»[٤٤].

وأعظم الطقوس الجماعية عندهم هي تقديم القرابين، فالقربان عند الهندي ليس مجرّد صورة خاوية؛ لأنّه يعتقد أنّه إذا لم يقدمه للآلهة طعاماً تموت جوعاً. ولما كان الإنسان في مرحلة أكل اللحوم البشرية، كانت القرابين في الهند كما في غيرها من بلاد العالم قرابين أو ضحايا بشرية.. فلمّا تقدّمت الأخلاق أخذت الآلهة تكتفي بالحيوان قرباناً[٤٥].

وهناك مركز رئيسي للحج عند الهنود منذ القرن ١٦ ق.م وهو مدينة بنارس الجليلة القدر عندهم، كعبة يحجّون إليها سنوياً يقدّسها البوذيون والچين، ويقصدها سنوياً حوالى مليون حاج؛ لزيارة معابدها وأضرحتها التي تمتد ٦٥كم بموازاة الجانج، وبها المعبد الذهبي[٤٦].

يقول وِل ديورانت في شأن هذه المدينة:

«.. وبنارس هي المدينة المقدّسة للهند، إذ باتت كعبة الملايين من الحجّاج، يؤمّها الشيوخ من الرجال والعجائز من النساء جاءوا من كل أرجاء البلاد؛ ليستحموا في النهر المقدّس (نهر الكنج) حتى يستقبلوا الموتىٰ برآء من كل إثم أطهاراً من كلّ رجس. إنّ الإنسان ليأخذه الخشوع، بل يأخذه الفزع، حين يتذكّر أنّ أمثال هؤلاء الناس قد حجّوا إلى بنارس مدى ألفي عام، وغمسوا أنفسهم في مياهها، وهم يرتعشون من لذعة البرد في فجر الشتاء، وشمّوا بنفس متقززة لحم الموتىٰ وهو يحترق، فعلوا كلّ ذلك وهم يفوهون بنفس الدعوات التي كان يقينهم أن تجاب، فعلوا ذلك قرناً بعد قرن، وتوجّهوا بالدعاء إلى نفس الآلهة التي لبثت على صمتها، لكن عدم استجابة إلـه من الآلهة لا يحول دون تعلّق القلوب به، فلا تزال الهند تعتقد اليوم بنفس القوّة، التي كانت تعتقد بها في أي عصر مضىٰ في الآلهة، الذين لبثوا كلّ هذا الزمن ينظرون إلىٰ فقرها وبؤسها، فلا تأخذهم من أجلها رحمة[٤٧]. وما زال السيخ يحجّون إلى هذا المعبد[٤٨].

هذا نموذج لحج الهند القديمة، وإذا تقدّمنا في الزمن بعيداً من ذلك التاريخ..

تقدّمنا إلى الهند في القرن الثامن الهجري، فسنجد نوعاً آخر من الحج المنحرف ينسبه أصحابه هذه المرّة إلى الإسلام، ذلك هو الحج على المذهب الذِكْري، وقد أسّس هذا المذهب: محمد المهدي الأتكي وضمّن آراءه في كتابه البرهان. وتبدأ قصّة هذا الحج كما كتبها (أحمد مولانا عبدالخالق ﷺ) قال:

«كان الضال ملّا محمّد المهدي الأتكي يسكن في البنجاب، وانتقل منه من موضع إلى موضع حتى وصل إلى موضع مشهور في بلوشستان المسمّى بـ(كيج) وبدأ يستفيد من جهّال هذه المدينة استفادة باطلة، ويدّعي بأنّه «المهدي الموعود» فصار مقبولاً عند الخاص والعام، ولم يمر وقت طويل حتّى كتب كتاباً ينبئ فيه أُمّته المضلة بأنّه قد نُسخت الشريعة المحمّدية بمجيئه في الدنيا، واعتقادها كفر ولا يحاسب أحد يوم القيامة عن أركانها الأربعة من الصوم والصلاة والحج والزكاة»[٤٩].

وبهذا الكلام استطاع محمد الاتكي أن يصرف المسلمين سكّان تلك المنطقة عن الصوم والصلاة والزكاة، والحج إلى الكعبة المشرّفة؛ وابتكر لهم حجّاً مشابهاً للحج الاسلامي المحمّدي لأماكن شبيهة بمقدّسات مكّة المكرّمة كجبل عرفات وجبل ثور وغار حراء، وبنىٰ لهم كعبة ليحجّوا إليها..

ويضيف أحمد مولانا قائلاً: «والحجّ: ـ لا يحج معتقدو هذا المذهب ـ المذهب الذِكْري ـ إلى بيت الله الحرام الذي أمر المسلمون بزيارته. والحج في الأشهر الحرام به، وإنّما اتخذوا جبلاً معروفاً باسم (كوه مراد) حجّاً لهم حيث يقع في جنوب مدينة (تربت) وهو منسوب إلى نائبه الضال (ملّا مراد) ساكن تلك المدينة، فيحجّون في الأيام الأخيرة من شهر رمضان بدايةً من ٢٧ من رمضان ويستغرق ثلاثة أيّام»[٥٠].

ويضيف أحمد مولانا أيضاً: «إنّ محمد الأتكي ادّعىٰ أن كتابه (البرهان)[٥١] أو بلغتهم (بركهور) كان ينزل عليه في جبل (كوه إمام) من خلال «مهبط الالهام» أو

الوحي تحت الشجرة، وجعل لهم هذا الجبل (كغار حراء) ثم اتخذ لهم ميداناً واسعاً كعرفة، حتى إذا أرادوا الحج ذهبوا لزيارته، وهو ميدان يسمّى (بكوه دن) و «كارتيزهزئي» الذي كان نهراً أو منبعاً للماء أصبح لهم بئر زمزم كما في مكة، ولكن من سوء حظّهم نضب ماؤها الآن بأفعالهم الخبيثة»[٥٢].

والطريف أنّ معتنقوا هذا المذهب يؤكّدون بأن للرسول محمّدﷺ أحاديث تؤكّد وتبشِّر بمجيء إمامهم الموعود (محمّد المهدي) فنرى الشيخ محمد قصر قندي في نسخته القلمية يقول:

«إنّ أبا بكر الصديق سأل رسول اللهﷺ: متىٰ يكون خروج المهدي؟ فقالﷺ: السلام: «فقد يجيءُ بعد مماتي في بلاد الهند سنة سبع وسبعين وتسعمائة اسمه كاسمي واسم أبيه كاسم أبي»[٥٣].

● **الحج في الصين**

والصين كالهند، فهي ليست موطناً موحّداً لأُمّة واحدة، بل هي خليط من أجناس مختلفة الأصول متباينة اللغات غير متجانسة.

وقد حدّثنا المؤرِّخون بأحاديث مفصّلة عن تاريخها منذ (٣٠٠٠ ق.م) حتى العصر الحديث، عن عاداتهم، وتقاليدهم وديانتهم... ولو أردنا استيعاب ذلك بأسره لطال الحديث بنا، ولكن لنأخذ نموذجاً يعطينا صورة من صور حجّهم وطريقتهم في الحج، علماً أن أشهر هيكل حج إليه الصينيون كان «هيكل السماء ومذبحه» اقتداءً بسنّة الإمبراطور العظيم «تاي دز ونج»: الذي كان يأتي هذا الهيكل في الساعة الثالثة من صباح رأس السنة الصينية للصلاة والدعاء لأسرته بالتوفيق والفلاح ولشعبه بالرخاء، ويقرب القربان للسماء التي يرجو أن تكون بصفّهِ لا في صفِّ عدوّه. وموقع هذا الهيكل بالقرب من سور «پيچنج» التتاري الجنوبي، ويتكوّن مذبح هذا الهيكل من سلسلة من الدرج والشرفات الرخامية، التي كان لعددها الكبير ونظامها أثر سحري في نفوس الزائرين، والهيكل نفسه

(بچودة) معد من ثلاث طبقات قائمة فوق ربوة من الرخام ومشيّدة من الآجر والقرميد الخاليين من الرونق. وقد نزلت صاعقة من السماء على هذا المعبد في عام ١٨٨٩م فأصابتهُ بضرر بليغ[٥٤]. وهذا الهيكل كان لعامّة الشعب أي كان معبداً عامّاً للجميع. وهناك معبد وهيكل مخصّص للديانة الرسمية، وهو الذي أمر ببنائه الامبراطور المذكور أعلاه «تاي دزونج»، فلمّا تربّع هذا الامبراطور العظيم على العرش أمر أن يشاد هيكل لـ «كنفوشيوس»[٥٥] في كلّ مدينة وقرية في جميع أنحاء الامبراطورية، وأن يقرب لها القرابين[٥٦]. وبنىٰ هيكلاً خاصّاً للديانة الرسمية في «پيكنج» والمسمى بهيكل «كنفوشيوس»، وحارسه پاي ـ لو، وكان فخماً محفوراً أجمل حفر..

هيكل السماء في پينج

وقد أدخلت عدّة تعديلات عليه، وأُعيد بناء بعض أجزائه عدّة مرّات، وقد وضعت لوحة روح أقدس القديسين المعلم والأب كنفوشيوس على قاعدة خشبية في مشكاة مفتوحة في الهيكل، ونقشت العبارة الآتية فوق المذبح الرئيسي: «إلى

المعلِّم الأعظم والمثال الذي تحتذيه عشرة آلاف جيل»[٥٧]..

ويمكن تسجيل عدد آخر من الأماكن العبادية المناسبة للحج، ولكن نكتفي بهذين النموذجين اللذين يعتبران أكثر الأماكن أهمّية وقصداً للزيارة في تاريخ الصين.

● **الحجّ في اليابان**

وحين ننتقل إلى اليابان نجدها قد تأثّرت بالصين بكثير من الأُمور كالفلسفة والعقائد الدينية وفن بناء المعابد وغيرها.. غير أنّ معابد اليابان كانت أغنى من معابد الصين زخرفاً وأرقىٰ نحتاً. فما يُرىٰ في معابد اليابان من بوّابات فخمة على طول المرتقى أو المدخل الذي يؤدّي إلى الحرم المقدّس وغيرها لا يُرىٰ في معابد الصين.

واعتادت فئة في اليابان على تقديس أرواح أسلافها فحيث تلتقي عبادة أرواح الأسلاف بالطقوس البوذية[٥٨] في تعايش سلمي منسجم، تقوم معابد (الشينتو) ـ أي معابد تقديس أرواح الأسلاف ـ مستقلة عند المعبد البوذي ومجاورة له وتسمّى في لغتهم: «فوجي ياما». ولفظة فوجي تعني «النار»[٥٩].

كما يؤمون المعابد البوذية في مدينة «نارا» حيث أقسم أسلافهم القدماء هناك علىٰ تحرير وطنهم من التبعية لإمبراطور الصين، فأصبح معبدها محجّةً لهم، ولم تكن ديانة «شنتو» بحاجة إلى تفصيل مذهبي أو طقوس معقّدة أو تشريع خلقي، ولم تكن لها طبقة من الكهنة خاصة بها، كلا! ولا تذهب إلى ما يبعث العزاء في نفوس الناس من خلود الروح ونعيم الفردوس، فكان كلّ ما تطالب به من معتنقيها أن يحجّوا آناً بعد آن لأسلافهم وأن يقدّموا لهم ضراعة الخاشعين، ويضحّوا بالقرابين ويقدّموا النذور وغيرها[٦٠].

ويمكن أن نعدّ في اليابان نوعاً آخر من الحج يتعلّق بالزهور ويمكن أن نسمّيه (حج الزهور):

فالزهور عند اليابانيين بمثابة الدين، فهم يعبدونها عبادة تشيع فيها روح التضحية بالقرابين، ويلتقي فيها أفراد الشعب جميعاً، وهم يرقبون في كلّ فصل من فصول العام ما يلائمه من زهور، فإذا ما أزهرت شجرة الكريز مدى اسبوع أو اسبوعين في أوائل شهر ابريل، يخيل اليك أنّ أهل اليابان جميعاً قد تركوا أعمالهم ليحدجوا فيها بأبصارهم، بل ليحجّوا إلى الأماكن المقدّسة التي تزخر بهذه المعجزة، ويكمل فيها إزهار هذا الضرب من الشجر[٦١].

● **حجّ الأنبياء والحضارات**

لقد قرأنا الحج في الحضارات في النقاط السابقة، ولنا أن نتساءَل... أين عاش الأنبياء، أليس هم بشراً جاؤوا لإرشاد الناس، وأين كان الناس أليسوا هم أبناء الحضارات المختلفة المنتشرة في العالم؟

الحقيقة أنّ الأنبياء وهم كثيرون جدّاً، لابدّ من أنّهم عاشوا في ثنايا الحضارات المختلفة يرشدون الناس، ويدلونهم على طريق الله الصائب، وعلى الرغم من أننا نعرف أنّ إبراهيم عليه السلام عاش في حضارة وادي الرافدين، ويوسف وموسى عاشا في حضارة وادي النيل، وأنبياء بني إسرائيل عاشوا في الحضارة الفينيقية وغيرها وآخرين في حضارات أُخرىٰ، إلّا أننا لا نعرفهم جميعهم كما جاؤوا في أحاديث نبيّنا صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام أنّهم (١٢٤) ألف نبيّ أو أكثر و(٣٠٠) رسول أو أكثر.

ولكن على أيّ حال لابدّ من أن نذكِّر أنّ ما تبقىٰ من الشعائر الصحيحة في تلك الحضارات هي لا شك جاءت بفضل كثرة الأنبياء، الذين عاشوا في تلك الحضارات. فقد كان الأنبياء في كلّ الحضارات القديمة، القدوة الحقيقية لشعوبهم، بل ولكلّ العالم، وتصرّفاتهم مستمدّة من السماء لا يفعلون شيئاً شائناً مضرّاً بالناس، وإلّا لا يمكن وصفهم بالأنبياء والقدوة، فالمقتدىٰ به يجب أن يكون أفضل الناس.. وهكذا كان الأنبياء في كلّ مكان وزمان. ولمّا كان الحج فريضة أمر الله تعالىٰ بها، فقد كانوا أولى المبادرين إليه، وكانوا أفضل من يقوم به ويؤدّي شعائره وممارسته..

فقد جاء في الروايات عن النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وعن أهل بيته الكرام عليهم السلام، في حج الأنبياء، أنّ الأنبياء والرسل مارسوا الحج جميعهم إلى بيت الله الحرام، ولم يتخلّف نبيٌّ واحد عن هذا المسار الربّاني السماوي.. وإليك بعض الأحاديث:

عن الحلبي: سُئل أبو عبدالله الصادق عليه السلام عن البيت أكان يحجُّ إليه قبل أن يبعث النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله؟ قال: «نعم وتصديقه في القرآن الكريم قول شعيب حين قال لموسى حيث تزوّج: ﴿**على أن تأجرني ثماني حجج**﴾ولم يقل ثماني سنين، وأنّ آدم ونوحاً حجّا، وسليمان بن داود قد حجَّ البيت بالجن والإنس والطير والريح، وحجّ موسى علىٰ جمل أحمر يقول: لبيك لبيك، وأنّه كما قال الله: ﴿**إنّ أوّل بيتٍ وضع**

للناس للذي ببكة مباركاً وهدًى للعالمين»، وقال: «**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل**»، وقال: «**أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود**» وأنّ الله أنزل الحجر لآدم وكان البيت»[٦٢].

وعن الإمام الرضا عليه السلام قال قائل: فَلِمَ جعل وقتها في ذي الحجّة؟ قيل: لأنّ الله تعالى أحبَّ أن يُعبد بهذه العبادات في أيّام التشريق، فكان أوّل ما حجّت إليه الملائكة وطافت به في هذا الوقت، فجعله سُنّة ووقتاً إلى يوم القيامة. فأمّا النبيّون آدم ونوح وإبراهيم وعيسى وموسى ومحمّد (صلوات الله عليهم) وغيرهم من الأنبياء إنّما حجّوا في هذا الوقت، فجُعلت سُنّة في أولادهم إلى يوم القيامة»[٦٣].

وجاء في أخبار مكة للأزرقي، قال: «ما بين الركن إلى المقام إلى زمزم قبر تسعة وتسعين نبيّاً جاءوا حُجّاجاً فقبروا هنالك»[٦٤].

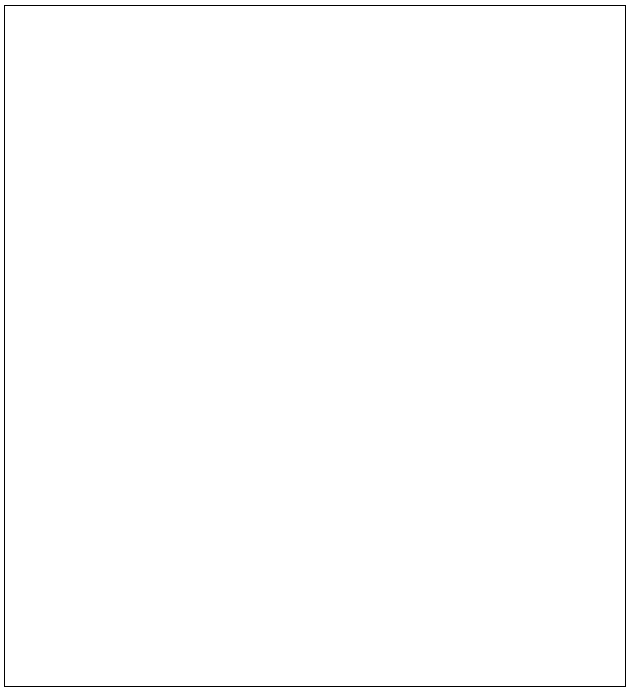

البيت الحرام، وجهة حج الأنبياء

الحجّ في الجاهلية

والجاهليون في الجزيرة العربية ونواحيها قدّسوا البيت الحرام والكعبة الشريفة ومنى وعرفات، وطافوا ولبّوا ونحروا ورموا الجمرات وأحرموا، وكان حجّهم يبدأ في اليوم التاسع من شهر ذي الحجّة، وعندما يصل الحجاج إلى عرفة، يرتدون لباساً خاصّاً بالحجّ، قال الجاحظ فيهم:

«كانت سيماء أهل الحرم إذا خرجوا إلى الحلِّ في غير الأشهر الحُرم، أن يتقلّدوا القلائد، ويُعلّقوا عليهم العلائق، فإذا أوذم أحدهم الحج، تزيّا بزيّ الحاج»[٦٥].

وكان الحج الإبراهيمي المحور الأساس في الحج الجاهلي، ولم يحفظ العرب من شريعة إبراهيم عليه السلام شيئاً إلّا الحج في مظاهره، غير أنّهم زادوا فيه وحذفوا منه، وأدخلوا الأصنام في الكعبة الشريفة، حتّى بلغ عددها أكثر من (٣٠٠٠) صنم، على رأسها هُبل واللات والعزىٰ ومناة... «.. وهم بعدُ يعظّمون الكعبة ومكّة، ويحجّون ويعتمرون، على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام..»[٦٦].

«ومنهم علىٰ ذلك من بقايا عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسّكون بها: من تعظيم البيت، والطواف به، والحج، والعُمرة، والوقوف على عرفة ومزدلفة، وإهداء البُدن، والإهلال بالحج والعُمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه»[٦٧].

وذكر القرآن الكريم حجّهم وأعمالهم عند بيت الله الحرام، بأنّها مزيج من الشرك والتفاخر والتجارة والهرج والمرج، قال تعالى: ﴿**وما كان صلاتُهم عند البيت إلّا مُكاءً وتصدية**﴾[٦٨] ويتنسّكون عنده مناسك يسمّونها اليوم أعياداً وموالد كشأن الجاهلية الأُولى، وكلّ ذلك لا يصيب به تشريع الله.. إلّا من حمله الهوى أو الجهل أن يركب رأسه فيقول، بغير علم ولا بيّنة..»[٦٩]. وقد عبّر عنهم القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿**إن يتّبعون إلّا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربّهم الهدى أم**

للإنسان ما تمنّىٰ﴾[٧٠].

وكان لكلّ قبيلة من قبائل العرب في الجاهلية، صنمها الخاص بها تهلل حوله حتى تصل مكّة، وكان عبّاد كلّ صنم إذا أرادوا الحج، انطلقوا إليه، وأهلّوا عنده ورفعوا أصواتهم، ووقفت كلّ قبيلة عند صنمها وصلّت عنده، وكانوا عند ترديد التلبية يصفقون ويصفرون[٧١]. وكانت التلبية هي: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك! إلّا شريكٌ هو لك! تملكُهُ وما مَلَكْ![٧٢].

وكان من شعائرهم في الطواف، أو لبعض منهم أن يطوفوا عرايا متجرّدين من كلّ ثيابهم، وهي شعيرة وثنية واضحة على الانحراف، وقد ذكر ذلك القرآن الكريم وكُتب الأحاديث والسير وكتب التاريخ.

والجدير بالذكر أنّ الحج إلى «بيت الله الحرام» في زمن الجاهلية لم يكن مقتصراً على العرب فقط، فقد ذكر لنا التاريخ أن الفرس وغيرهم حجّوا إليه وعظّموه وقدّموا إليه الذهب والفضّة والقرابين والنذورات وغيرها.. فقد جاء في مروج الذهب للمسعودي: «وقد كانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام، وتطوف به، تعظيماً له».

والمكاء: الصفير، بصيغة المبالغة طائر بالحجاز شديد الصفير، ومنه المثل السائر: (بنيك حمّري ومكئكيني) والتصدية التصفيق بضرب اليد على اليد، والمعنى أنّ المشركين في الجاهلية كان حجّهم وأعمالهم عند البيت الحرام، ما هي إلّا ملعبة من المكاء والتصدية[٧٣]. وهرجاً ومرجاً لا خشوع فيها ولا خضوع، لأنّها كانت صفيراً بالأفواه، وتصفيقاً بالأيدي[٧٤].

وقد ورد عن الحج في الجاهلية: «أنّه كان يقام في الجاهلية كلّ عام سوقان في شهر ذي القعدة أحدهما في عكاظ والآخر في مجنة، وكان يتلوهما في الأيام الأُولى من ذي الحجة سوق ذي الحجاز، ومنه يخرج الناس إلى عرفات مباشرة.. وكان الحج إلى عرفات يقع في التاسع من ذي الحجة، وكانت شتّى قبائل العرب

تشترك فيه»[٧٥].

وللحج في الجاهلية مظاهر خاصّة من أعمال وحركات عابثة وأفعال لا معنى لها؛ لأنّها رموز وشعائر ومناسك مقتبسة وغير مقتبسة وتلبيات، دون حضور قلب وهدىٰ، بل حضور هوىٰ وعصبية قبلية، ومحبّة وإخلاص للأصنام التي لا تنفع ولا تضرّ ولا تعي ولا تسمع ولا تغني عنهم شيئاً.

«والواضح الذي لا شكَّ فيه: أنّ الوثنيين قد اتخذوا بما أوحىٰ إليهم الشيطان، معابد وهياكل يحجّون إليها. ليس العرب وحدهم ولا في القديم فقط، بل الناس هذا شأنهم حين تغلب عليهم الجاهلية، ويُشرعون من الدين ما لم يأذن به الله. فقد أقاموا من قبور أوليائهم ومن تماثيل معظميهم الذين غلوا فيهم، فأعطوهم الآلهية، ما يحجّون إليه كلّ عام ولجدِّها إبراهيم عليه السلام، وتمسّكاً بهديه، وحفظاً لأنسابها، وكان آخر من حجّ منهم ساسان بن بابك وهو جدّ أردشير بن بابك، وهو أوّل ملوك ساسان وأبوهم الذي يرجعون إليه... فكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزَمْزَمَ على بئر إسماعيل»[٧٦].

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام بذلك، فقال:

وما زلنا نحجُّ البيتَ قِدْما ... ونلقي بالأباطح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتى ... أتى البيت العتيق يطوف دينا
فطاف به، وزمزم عند بئر ... لإسماعيل تروي الشاربينا[٧٧]

وقال المسعودي أيضاً: «وكانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالاً في صدر الزمان، وجواهر، وقد كان ساسان بن بابك هذا أهدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً فقذفه في بئر زمزم»[٧٨].

ثم يضيف قائلاً: «وقد ذهب قوم من مصنّفي الكتب في التواريخ وغيرها من

السير أن ذلك كان لجرهم حين كانت بمكّة، وجرهم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك إليها، ويحتمل أن يكون لغيرها، والله أعلم»[٧٩].

البيت الحرام

وجهة حج الجاهلية أيضاً ←

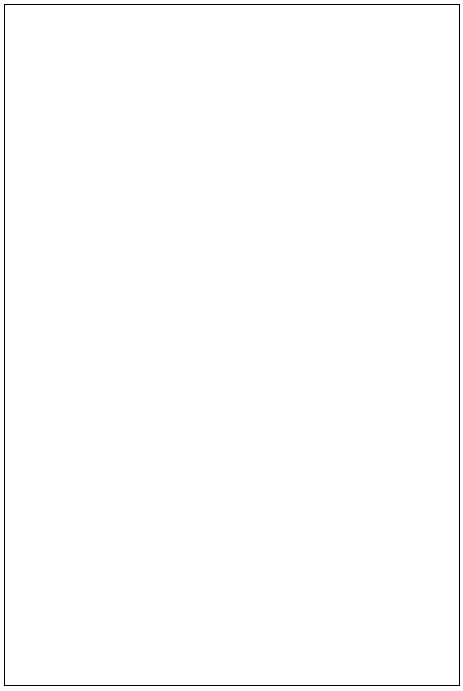

الهوامش :

(١) آل عمران: ٩٦.

(٢) الأنعام: ٧٠.

(٣) النحل: ٣٦.

(٤) أُنظر قصّة الحضارة، ول ديورانت، مج ١، ج ٢. وكتاب الحضارات: ص ٢٦ ـ ٢٧، وكذلك موسوعة المورد: ٣٠/١.

(٥) انتصار الحضارة، چيمس هنري برستر، ترجمة د. أحمد فخري: ص ٩٤، الجامعة العربية.

(٦) أبي الهول: تمثال رأسه على شكل إنسان، ووجهه كالفرعون خفرع يرقى تاريخه إلى (حوالى ٢٢٥٠ ق.م).

(٧) كتاب الحضارات، لبيب عبدالساتر: ص ٢٧.

(٨) قصّة الحضارة، مصدر سابق: ص١٥٩.

(٩) راجع الموسوعة العربية الميسّرة، مصدر سابق: ص١٥٩.

(١٠) أُنظر قصة الحضارة، مصدر سابق: ص١٥٩ ـ ١٦٧. وانتصار الحضارة، مصدر سابق: ص٩٣ ـ ٩٤. ومجلة العربي، استطلاع: سليمان مظهر: ص١٤٢ ـ ١٤٣ (منهم من اختصر القصّة ومنهم من فصّلها).

(١١) أُنظر عظمة بابل، د. هاري ساكز، ترجمة د. عامر إبراهيم: ص٤١٢.

(١٢) الحضارات، لبيب عبد الساتر، ص٤٢.

(١٣) المصدر السابق، ص٤٦ وقصّة الحضارة: مج١/ج٢، الباب التاسع بابل.

(١٤) عظمة بابل، مصدر سابق: ص٤١٠.

(١٥) الزقورة: برج هرمي متعدّد الطبقات، يعتبر بمثابة صرح ديني نموذجي علىٰ ما يصفه د. هنري س. عبودي في معجم الحضارات السامية. والزقورة تبدو في الصورة أعلاه كالكعبة وسط الحرم. فالزقورة وسط المعبد تحيطها ساحة كبيرة لاستيعاب الحجاج في موسم رأس السنة.

(١٦) شيث: وتعني هبة الله، وهو الجد الثالث لإدريس عليه السلام، وقد حكم في الناس بعد أبيه آدم عليه السلام واستشرع صحفه وما أنزل عليه في خاصته من الأسفار والأشراع.

(١٧) إدريس: تزعم الصابئة أنّه هرمس، ومعنىٰ هرمس عطارد. وقد أنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة، وكان قد نزّل قبل ذلك على آدم، إحدى وعشرين صحيفة، وأنزل على شيث تسعاً وعشرين صحيفة فيها تهليل وتسبيح.

(١٨) أُنظر: دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين: مج١٤/ص٨٩. وكتاب الملل والنحل للشهرستاني: ص٤٧.

(١٩) معجم البلدان، ياقوت الحموي، باب الحاء والراء.

(٢٠) أُنظر دائرة المعارف الإسلامية: مج٧/ص٣٥٤.

(٢١) أُنظر المصدر السابق: ص٣٥٥.

(٢٢) الموسوعة العربية الميسّرة، مصدر سابق: ص٦٩٥.

(٢٣) إبراهيم أبو الأنبياء، العقّاد: ص٨٩.

(٢٤) المصدر السابق: ص٩٠.

(٢٥) الميزان في تفسير القرآن، العلّامة الطباطبائي: ١٩٤/١.

(٢٦) مذهب الصابئة يحرّم الاختتان ويعتبر المختتن خارجاً عن الدين.

(٢٧) الميزان، مصدر سابق: ١٩٤/١.

(٢٨) المنديا: فرقة من الصابئة وتسمّىٰ نصارىٰ يوحنا المعمدان.

(٢٩) دائرة المعارف الإسلامية: مج١٤/ص٨٩.

(٣٠) الميزان، مصدر سابق.

(٣١) إبراهيم أبو الأنبياء، العقّاد: ص ٩١.
(٣٢) إبراهيم أبو الأنبياء، العقّاد: ص ٨٧ ـ ٩٠.
(٣٣) قصّة الحضارة، مصدر سابق: مج ١/ج ٢/ص ٤٢٥.
(٣٤) زرادشت: مصلح إيراني ظهر في إيران قبل المسيح بمئات السنين، وله قصّة مثيرة ومؤثّرة في نفوس أتباعه، قيل: إنّ أُمّه قد حملت به حملاً إلـهياً قدسياً؛ ذلك أنّ الملاك الذي كان يرعاه تسرّب إلى نبات الهَوْما، وانتقل مع عصارته إلى جسم كاهن حين كان يقرّب القرابين المقدّسة. وفي ذلك الوقت نفسه دخل شعاع من أشعة العظمة السماوية إلى صدر فتاة راسخة النسب سامقة في الشرف، وتزوّج الكاهن بالفتاة، وامتزج الحبيسان الملاك والشعاع، فنشأ «زرادشت» من هذا المزيج، وقهقهه حين ولادته ففرّت من حوله الأرواح الخبيثة، وأحبّ هذا الوليد الحكمة والاصطلاح، ثم تجلّى له (رب النور) الإلـه الأعظم، ووضع في يديه (الأبستاق) أي كتاب العلم والحكمة، وأمره أن يعظ الناس.
وهكذا ولد الدين الزردشتي. وعمَّر زرادشت طويلاً حتّى أحرقه وميض برق، وصعد إلى السماء، أُنظر قصّة الحضارة: مج ١/ج ٢/ص ٤٢٤.
(٣٥) كان تقديم الضحايا البشرية قبل عهد (زرادشت) أي في عهد المجوس الذي قضى عليهم (زردشت).
(٣٦) قصّة الحضارة، مصدر سابق: ص ٤٣٣.
(٣٧) الشريعة الابستاقية هي نفسها شريعة (زرادشت) وتنسب إلى كتابه المقدّس.
(٣٨) قصّة الحضارة، مصدر سابق: ص ٤٣٩.
(٣٩) أعظم هيكل روماني هو هيكل (يونو المنذرة أو الحارسة) على القمّة الشمالية لتل الكپتول وعلى المنحدر الجنوبي من هذا التل يوجد معبد ساترن، ويرجع بناء ذلك المزار أو الهيكل ـ الذي هو أقدس مزارات رومة ـ يرجع تاريخه إلى عام ٤٩٧ ق.م. ولا زالت آثاره باقية حتى الآن. أُنظر قصّة الحضارة: مج ٥/ج ١/ص ٢٩٣.
(٤٠) المصدر السابق: ج ٢/ص ١٣٣.
(٤١) المصدر السابق: ص ١٣٥ ـ ١٣٦.
(٤٢) المصدر نفسه.
(٤٣) المصدر السابق: ص ١٢٨.
(٤٤) قصة الحضارة: مج ٢/ج ٣/ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥.
(٤٥) المصدر نفسه.
(٤٦) الموسوعة العربية الميسّرة: ص ٤٠٧.
(٤٧) قصة الرحمة: مج ٢/ج ٣/ص ٢٢٧.
(٤٨) أُنظر موسوعة المورد: مج ٥/ص ١١.
(٤٩) الفاروق، مجلّة إسلامية ثقافية، فصلية تصدر عن رئاسة الجامعة الفاروقية، باكستان: ص ٣٦ العدد ٥٤/١٩٨٨م.

(٥٠) المصدر السابق: ص٣٧.

(٥١) البرهان: كتاب ألّفه محمّد الاتكي مؤسس المذهب الذكري، وادّعى أنّه قرآنهم الجديد النازل عليه من السماء والناسخ لقرآن محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله. وفيه كلّ تعاليم المذهب، وفيه أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وآله تؤكّد ظهور (محمد المهدي الاتكي) في القرن الثامن الهجري.

(٥٢) الفاروق، مصدر سابق: ص٣٧.

(٥٣) المصدر نفسه: ص٣٦.

(٥٤) قصّة الحضارة: مج٢/ج٤/ص١٨٢ ـ ١٨٣.

(٥٥) كنفوشيوس: ولد عام (٥٥١ ق. م) في مدينة تشو ـ فو إحدى البلاد التي كانت تكوِّن وقتئذ مملكة لو، والتي تكون الآن ولاية (شان توبخ). وصار فيلسوفاً، ومعلّماً محبوباً تهوي إليه القلوب، وألّف خمسة مجلّدات أسماها (كتب القانون الخمسة) ولما مات عن عمر ٧٢ سنة واراه تلاميذه التراب باحتفالٍ مهيب جدير بما تنطوي عليه قلوبهم من حبٍّ له وإجلال، وأحاطوا قبره بأكواخ لهم أقاموا فيها ثلاث سنين يبكون كما تبكي الأبناء على آبائهم. ثم بنى الامبراطور العظيم فوق قبره هيكلاً ومعبداً وأصبح مكاناً يحجّ إليه الصينيون آلاف الأعوام.

(٥٦) قصة الحضارة: مج٢/ج٤/ص٦٦.

(٥٧) المصدر نفسه: ص١٨٢.

(٥٨) البوذية كانت تمارس في اليابان ولكن دخلت تعاليمها عام ٥٢٢م من الصين بتفاصيل، وكان على الرجل الياباني أن يختار لنفسه مذهباً من عدّة مذاهب في البوذية، أو أن يختار لنفسه سبيلها في حج صبور إلى حيث دير «كوپاسان» وهناك يبلغ الجنّة بأن يدفن في أرض تقدّست بفضل ما فيها من عظام «كوبودايشي» ذلك العظيم في علمه وفي تديّنه وفي فنّه.

(٥٩) موسوعة المورد: ١٧٧/٤.

(٦٠) أُنظر قصّة الحضارة: مج٣/ج٥/ص١٠ ـ ١٤.

(٦١) قصّة الحضارة، المصدر السابق: ص٥٩.

(٦٢) بحار الأنوار: ٩٤/٩٩.

(٦٣) المصدر السابق: ص٤٣.

(٦٤) أخبار مكّة، الأزرقي.

(٦٥) البيان والتبيين، الجاحظ: ٦٥/٣.

(٦٦) كتاب الأصنام، الكلبي: ص٦.

(٦٧) المصدر نفسه.

(٦٨) الأنفال: ٣٥.

(٦٩) دائرة المعارف الإسلامية، مصدر سابق، المعلق في الحاشية محمد حامد الفقي: ص٣٠٥.

(٧٠) النجم: ٢٣.
(٧١) كتاب الأصنام: ص٧.
(٧٢) أُنظر أخبار مكة: ٧٥/١. وتاريخ اليعقوبي: ٢٩٦/١.
(٧٣) الميزان: ٧٤/٩.
(٧٤) الكاشف: مج٣/ص ٤٧٥.
(٧٥) دائرة المعارف الإسلامية: مج٧/مادة (الحج)/ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥.
(٧٦) مروج الذهب، المسعودي: ١/ص ٢٥٤.
(٧٧) المصدر السابق.
(٧٨) المصدر نفسه: ص ٢٥٥.
(٧٩) المصدر السابق.